الأوذيسة

لهوميروس

بقلم الأستاذ دريني خشبة

خلاصة الفصول السابقة

« انتهت حرب طروادة ولكن أوديسيوس العظيم لم يعد فيمن عاد من أبطال اليونانيين إلى بلادهم ، وكانت زوجته پنلوپ آية فى الجمال ، فطمع فيها كل أمراء النواحى وحاصروا بيتها ليرغموها على التزوج من أحدهم . وكان لأوديسيوس ولد اسمه تلياك حرضته مينرڤا ربة الحكمة على الإبحار ليسأل عن أبيه ملكى پيلوس وأسبرطه . وغيظ العشاق لما علموا بإبحاره فتربصوا له ليقتلوه . أما أبوه فانه لما أبحر من طروادة نسى أن يضحى للآلهة فغرقت أساطيله ونجا هو إلى جزيرة تسكنها عروس الماء كاليپسو التى عشقته أول ما رأته وأبقته عندها سبع سنين ، حتى أمرها كبير الآلهة زيوس أن تطلق سراحه فأبحر على رمث صغير ، ولكن نپتيون عدوه الأكبر لمحه وهو يقترب من أرض ملوك البحر فأغرقه مرة أخرى ، وبعد نضال شديد سبح إلى الشاطئ حيث لقى نوزيكا ابنة الملك فأرشدته إلى بيت أبيها الذى أكرم مثواه ووعد أن يرده سالما إلى بلاده . وأقام الملك حفلاً رياضيا اشترك فيه أبطال المدينة وغمز أحدهم أوديسيوس بكلمات ينعى عليه فيها أنه لا يعرف من الرياضة شيئا وإلا لشارك فى تلك الألعاب ، فغضب أوديسيوس ونهض فقذف بالقرص الكبير قذفة بلغت من المدى أضعاف ما قذف أقوى أبطالهم ، ثم تحدى الجميع لمصارعته وملاكمته فتقاعسوا . . . وسأله الملك من هو ولم كان يبكى حينما سمع المنشد يذكر حروب طروادة وبطلها العظيم أوديسيوس . . . وهو هنا يجيب عن أسئلة الملك بهذا الفصل الفريد الذى يرتفع فيه هومير إلى الذروة »

هوميروس

فى أرض المردة (السيكلوبس)

وشرع أوديسيوس يجيب عما تساءل عنه الملك فقال : « أيها الملك تعالى جده ، لشد ما يُطرب ما تغنى هذا المنشد غناء الآلهة ! ولقل ما تعدل الدنيا بأسرها هذا المجلس الشادى ذا الأضياف والآكال والأشربات ! على أننى مجيبك على ما بدهك من دموعى وهمومى ، وما لقيت وما سوف ألقى مما قسم لى من أشجان وأحزان ! إذن فاعرف اسم ضيفك الشريد الذى لا يجهل اسمه أحد ... ضيفك اللائذ بكرمك ، المستذرى بحماك ، المتشبث بك ليصل فى ظلك إلى بلاده مهما تقاصت ومهما نأت ... أنا أيها الملك ... أوديسيوس ... أجل ... هو أنا أوديسيوس ذو الذكر ، المعروف فى السموات بالدهاء والمكر ، ... ابن لبرتيس رب إيثاكا ، وملك نريتوس ذى الشماف السامقة ، والجزر الآهلة حول ساموس ودلخيوم وزاسنتوس ، أم الجزائر التى تصافح تباشير الصباح بكل روضة فيحاء وخميلة لفاء ، وجنات ذوات

شجر وثمر ، صِبغًا لأبنائها الأوفياء ... هناك ... حيث احتجزتني عروس الماء كاليبسو في كهفها ، وراودتني لأكون بعلها ... وهناك ... حيث أغرتني سيرس هي الأخرى ، سيرس صاحبة جزيرة إيايا ... التي حاولت أن تتخذ مني خليلا فأبيت ، ولم أقبل أن أضحي وطني وأهلي ، ولو أصبحت زوجاً لاحدى الربات الخالدات ... ولكن لا ، هلم قبل كل شيء أقص عليك من أنباء رحلاتي منذ بارحت إليوم ، ولأدع ما قبل ذلك فهو معلوم مشهور :

« أقامت بنا الفلك إلى بلد السيكون (إزماروس[1]) ، فبدا لي أن أزيد في ثروة رجالي وما فازوا به من أسلاب طروادة ، فأشرت عليهم بفتح المدينة واغتنام ما فيها من كنوز وأذخار[2]) وسرعان ما تم لنا ذلك ، فقتلنا العسكر وملكنا القرية ، ووزعت السبي والأسلاب على جنودي ، ثم أشرت عليهم بالرحيل فعصوا أمري ، وعثوا في المدينة مفسدين ، وعاقروا من الخمر وعقروا من الشاء ما أذهلهم عن أنفسهم ، وأتاح لأعدائهم لم الشعث ، ففجأونا بجيش عرمرم منهم ومن جيرانهم ، وناضلونا عن مدينتهم فأوقعوا بنا ، ولم يُغننا أنا قاتلناهم حتى مطلع فجر اليوم التالي ، بل ظل فرسانهم الصناديد يكرون ويفرون ، حتى قذفوا بنا في البحر ، فوقفنا في سفائننا نناوشهم برماحنا ... وصمدنا لهم حتى توارت الشمس بالحجاب ... فانسحبنا نجر أذيال الهزيمة والخزي ، بعد إذ انتزع السيكون فخار النصر . وعدت إلى الجند ... فوا أسفاه ! ... لقد افتقدت ستة من رجال كل سفينة ... سقطوا في المعركة الخاسرة !

وأجننا الليل ، فجلسنا نتذاكر أسماء القتلى ؛ وما كدنا نقفل حتى سخر علينا جوف رب السحاب الثقال — ريحا صرصرا عاتية أثارت البر والبحر ، وعصفت بمراكبنا فأطاحت قلاعها ومزقت شراعها ، ففزعنا إلى المجاذيف وأعملنا السواعد ، مستقتلين مستميتين ، حتى نجونا بعد لأي إلى البر ، حيث لبثنا ليلتين طويلتين في أين وإعياء ، وشكاة وشقاء ، نصلح القلاع ونرتق الشراع .. وفي صباح اليوم الثالث تطامن البحر ونام هائجه ، فبادرنا إلى الفلك وأقلعنا باسم الآلهة مجراها ومرساها . وما كدنا نلمح شطئان ماليا ، حتى هبت زوبعة عنيفة تلاعبت بنا ، وحملتنا إلى جزيرة سيتيرا ... وطفقنا بعدها نذرع العباب تسعة أيام أخرى ، حتى بلغنا بلاد (لوتوفاجي) ، هذا الشعب الغريب الذي يقتات بالفاكهة فحسب ، من دون ما تنبت الأرض وما يدب عليها ... ورسونا ثمة ، وأهرع الملاحون إلى البر فاستراحوا وسمروا ؛ ثم تخيرت اثنين من أوثق رجالي ، وجعلت عليهما ثالثا رئيساً ووجهتهم إلى سكان هذه الأرض ليتعرفوا أحوالهم ، فاختلطوا بهم ، وقابلهم اللوتوفاجي بالبشر والترحاب ؛ ثم عرضوا عليهم من ثمر اللوتس العجيب ، الذي ينسى آكله ما أسلف من حياته ، وتَنبَتّ ما بينه وبين وطنه من وشيجة فما يفكر فيه ، وإذا فكر فيه فما يؤثر أن يرتد إليه ، بل يصبح كل مناه أن يأكل ويأكل ويأكل من هذا اللوتس العجيب ، وأن يعيش أبد الدهر بين أولئك اللوتوفاجي السحراء ! ... وتنظرت عودة رجالي ،

(١) على الشاطىء الشمالي لبحر إيجه

(٢) مابين القوسين من شرح الأستاذ جرير وليس من متن الأوذيسة

بيد أنهم لم يرجعوا ، فاضطررت أن أذهب بنفسى إلى حيث هم ، فحملتهم قسراً إلى الشاطئ بين العويل والضجيج ، وقذفت كلا منهم فى قمرة مغلولا مكبلا مشدود الوثاق ، ثم أمرت الملاحين فأبحروا على عجل قبل أن يأكل بعضهم من اللوتس الملعون فيضل ضلالهم وينسوا أوطانهم ، ويظلوا فى هذه الأرض جائعين

« وما عتمنا أن وصلنا إلى أرض المردة الجبابرة السيكلوپس — الطغاة العتاة ، الذين لا يخضعون لشريعة ، ولا يأتمرون بقانون ؛ الذين تؤتى أرضهم أكُلَها رغدا من غير كد ولا عناء ... حَبًّا وأبًّا ، وحدائق غُلْباً وقَضْباً وعنبا ، تُسقى مما يفيض عليها جوف من مائه المعين ... يعيشون فوضى ، لا تربطهم رابطة ، ولا يقوم بينهم نظام ؛ يأوون إلى كهوفٍ موحشة ، وغيرانٍ سحيقة ، فى قلل الجبال وأحيادها ... يُعنى كل منهم بنفسه وزوجه وأولاده وقطعانه ، ولا يأبه للباقين ، وتلقاء أرضهم توجد جزيرة معشبة أريضة شجراء ، فيها من الماعز السائم قطعان لا حصر لها ، ولكنها مع ذلك بهماء[1] مُضِلة ، لم تطأها فيما غبر قدم إنسان ، ولم يُرَش إلى حيوانها منهم صائد ، لأن السيكلوپس لم يحاولوا أن يركبوا البحر مطلقاً ، ولم يعرفوا طوال حياتهم هذه الجوارى المنشئات فيه كالأعلام . لذلك سلمت الجزيرة بما فيها من خير ، وتكاثرت قطعانها حتى امتلأت بها مروجها الخضر السندسية ... وثمة ، فى جَوْن هادئ جميل ، ألقينا مراسينا ، ونزلنا من سفائننا ، فى ظلام الليل الدامس ، وفى حراسة الآلهة ، بعدإذ ارتطمنا بسيف البحر ... ثم نمنا على الشاطئ حتى مطلع الفجر ؛ وأشرقت أوروورا تنضر بالورد مشرق الأفق ، فنهضنا نجوب الجزيرة ، ونتفيأ ظلال الحور ، ونرى عرائس الماء ترعى الماعز ؛ فبادرنا إلى سفننا ، وأحضرنا الحراب والأقواس ، ثم تفرقنا ثلاث فرق ، وشرعنا نصيد من هذا الحيوان ، فاجتمع لنا منه الشىء الكثير ، ونال كل من رجال سفائننا الاثنتى عشرة تسع أعنُز ، بعد أن تخيرت عشْرا لنفسى ؛ ولبثنا يومنا هذا نغتذى بكل شواء حنيذ ، ونكرع كل كأس روية ، فى غير تخمةٍ ولا شجى[1] . . . وللآلهة تلك الخمر السلاف السيكونية التى افترعناها من زِقاق أزماروس ! ثم نظرنا ناحية الغرب ، فما راعنا إلا دخان كثيف يصّاعد فى الأرض القريبة ، ورغاء وضوضاء كالرعد تنتشر فى جنباتها ، وإذا هؤلاء السيكلوپس المردة ينتشرون فى الأرجاء ، وأمامهم قطعانهم من الشاء والأنعام ... أعداد لا حصر لها ... عليها إذا عُدَّ الحصى يتخلف !

ونمنا ليلتنا مروعين ، حتى إذا بزغت أوروورا نهضنا واحتشدنا فى صعيد واحد ، ثم قمت فى رجالى خطيباً ، فقلت : « أيها الأخوان ! لتبق غالبيتكم فى هذه الجزيرة ، فانى ذاهب فى نفر منكم نرود هذه الأرض ، ونعرف من أنباء أهلها ، ونعلم من أحوالهم ، ونرى هل قوم ظلم وضيم ونضال هم أم ربيون يهشون للمكرمات ، ويحبون للآلهة ؟ »

« وأقلعت فى نخبة من رجالى فوصلنا طرفاً من الجزيرة ناتئا فى البحر ، فوقه قلاع مشرفة عليه ، فهبطنا فيه ، وذهبنا نروده ، حتى انتهينا

(١) مضلة لا يهتدى فيها

(١) الشجى هو الغصص بالشراب

إلى كهف عظيم ضارب فى الصخر ، وقد نما الغار الجميل عالىَ بابه الضخم ... ودخلنا ... وأثار دهشتنا هذه الحظيرة الكبيرة فى وسط الكهف ، تتسع لقطعان لا عدد لها من الأنعام والأغنام والماعز ، ثم هذا الفناء العظيم المحدق بها يفصله عنها سور عتيد من الحجر الصلد ، مُتَرسٌ بجذوع الحور والسنديان ؛ ولقد عرفنا فيما بعد أن صاحب هذه المغارة مارد جبار من أراذل السيكلوپس ، لصق بهذا الطرف من الجزيرة يعسف ويظلم ويعاوه بغياً وعدواناً . . . ثم هو إلى الجان والشياطين أقرب منه إلى أى خلق آخر ؛ فوجهه مريد عبوس أبدا ، وهو إلى ذلك هولة تحسبه إذ تراه قطعة من الصخر نحت منها ناطور فوق ناصية الجبل . . ؛ . . وتوقلنا[1] ... وكان معى زق من خمر معتقة مما أعطانيه مارون بن إيفانت ، قسّ فوبوس ، رب إزماروس ، لقاء ما أبقينا عليه وعلى زوجه وأولاده يوم غزوتنا لقريته . . . يا له من كاهن سمح طيب القلب ؟ ! لقد نفحنى بأكرم اللّهى[2] وأجزل الهبات ؛ وهل أنسى ما حييت تلك البدَر السبع من الذهب الخالص ، وذلك الدّن من الفضة الغالية ، وتلك الجرار الاثنتى عشرة من الخندريس الصرف التى تُشرب باسم الآلهة ؟ لقد كان يفديها بنفسه وماله ، فلم يكن يعرف مخبأها أحد غيره وزوجه وأمينه . . . لقد كانت كأس روية واحدة من هذه المدامة تمزج بعشرين ضعف من الماء القراح ، وهى مع ذاك سكْر ولذة وروْح علوى للشاربين ؛ ثم كان معنا رُكْزاً[1] به أكل كثير ، وكنا عدداً عديداً من الأبطال الصناديد ، ولكنا مع ذاك كانت تعترينا رعدة ، وكان يشيع فى قلوبنا فزع ، أن يفجأنا هنا الجنّى صاحب المكان ، الذى لا يخشى فينا شريعة ، ولا يرده عن أذانا قانون . . . ، ثم توقلنا كذلك ، فأشرفنا على مغارة سحيقة هى مقام السيكلوب ومنامته من غير ريب ؛ بيد أننا لم نجده عندها ، فقلنا ربما انطلق بقطعانه يرعاها فى الروج القريبة .. ورددنا الطرف فى المغارة فرأينا مصافىَ كثيرة معلقة بنز الحصير[2] منها ههنا وههنا ، فعرفنا أن السيكلوب يصنع الجبن من ألبان مواشيه ، سيما وقد امتلأ المكان بمواطٍ كثيرة مفعمة بالحصير والمخيض . وعلى مقربة منا شهدنا حظائر واسعة لصغار الشاه والحملان والماعز ، وقد قسّمت فرقاً حسب سنها ... وقد بدا لبعضنا أن نذهب بما هنالك من جبن وزبد ، وأن نسوق الحملان والجذعان إلى سفائننا ، غير أنى — وا أسفاه ! — تأبيت ، لأننى آثرت لقاء السيكلوب ، رجاء أن ينفحنى من كنوزه ، ويسبغ علىّ من آلائه ؛ ولذا ، جلسنا ريثما يعود ، وأكلنا من جبنه وزبده ، وأشعلنا ناراً نستدفئ ، ثم إذا هو يطوى الروج الخضر بقطعانه ، وإذا على كاهله الرحب أثقال وأحمال من الحطب وفروع الشجر اليابس ، حتى إذا كان لدى الباب ألقاها فى بطش فاهتزت الأرض ودوّى المكان ، وانحبس وصيد الكهف ، فانقذف الرعب فى أفئدتنا ، فهرولنا مذعورين صمقين ، واختبأنا كالخافيش فى زوايا

(١) توقل : صعد فوق جبل
(٢) العطايا

(١) الركز (الخرج) بضم الراء ما يحمل فيه الزاد
(٢) الماء يسقط من الجبن

المغارة وشقوقها ... أما هو ، فقد أدخل قطعانه ، واحتجز ذكرانها فى الفناء الخارجى ، ثم أخذ فى حلب الأناث فى الرحبة الداخلية . . . ونهض بعد ذلك فسد مدخل الكهف بحجر واحد كبير لو وضع على عربتين عظيمتين لم يستطع عشرون ثور ضخم أن تزحزحه من مكانه ... وجلس يحلب النعاج والماعز ، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى جذعانها [1] ترضع ما تبقى فى ضرعها . . . وكان يقسم لبنه قسمين ، فيحتفظ بأحدهما لشرابه ، ويمخض الآخر لزبده وجبنه ثم فرغ من هذا كله وأضرم ناراً عظيمة ما كادت تلتهب حتى رآنا معلقين فوق نؤى الكهف . فصاح بنا : «من هنا ؟ وىْ ! من أنتم أيها الغرباء ، ومن أى البلاد نزحتم وفيم خضتم هذا العباب إلى هنا ؟ آفاقيون ؟ أم تجار ؟ أم قرصان تعيثون فى بلاد الناس ؟ » وزلزلنا زلزالاً عظيما ، وكان صوته الأجش الخشن يلقى الرعب فى قلوبنا فتعتلج اعتلاجاً ... ثم إنى جمعت ما تبقى من وعيى ، وما أبقى عليه الروع والهلع من إدراكى ، فقلت أجيبه : « نحن إغريقيون أيها العزيز وقد ذرعنا البحر اللجى شرقاً ومغرباً ، وتقاذفتنا فوقه كل ريح ، منذ بارحنا إليوم التى فتحها الله علينا ، لأننا من عساكر أجا ممنون الملك ، ابن أتريوس الكريم ، قاهر طروادة ، ومبيد الطرواديين . . . وها نحن أولاء ، قد لذنا بك بعد طول النصب ، فنضرع إليك أن تقى علينا مما أفاء جوف عليك ، وأن تردنا غانمين . . . فيا مولانا أكرم مثوانا ، فنحن الأغراب فى كنف جوف أبداً ، وأينما نولّ فانه معنا »

(١) جمع جذع بفتحتين كل حيوان صغير غير مفترس

وتجهم السيكلوب الجبى وقال مغضباً مستهزئاً : « حَسْبُك أيها الأخ المغفل ما خَوّفت من جوف ، فنحن السكلوپس لا نبالى جوف ، حامل إيجيس [1] ، ولا سكان السماء قاطبة ... أنا أقوى منهم بكثير ، وأنا نفسى ، لن آبه لأيما نذير من جوف كبير الأولمب ... ولكن حدثنى قبل كل شىء متى ألقت سفينتكم مراسيها فى أرضنا ؟ وأين هى ؟ أقريبة أم قاصية من هنا ؟ قل الحق ولا تخف عنى شيئاً » ... وأجبته فى حيطة ورفق ، وقد عرفت ما رمى إليه : « لقد نسف نپتيون رب البحار مركبنا فى اليم نسفاً ، وسلط عليها الزوابع فجرت بألواحها بعيداً . . . بعيداً من ههنا . . . ونجوت مع هذا النفر من رفاق فقط إلى شاطئكم » ولم ينبس السيكلوب الجبار بكلمة ... بل أقبل نحونا ، وانقض على رجالى كالصاعقة ، ثم أمسك باثنين منهم ، وأرساهما فى الهواء ، ثم ضرب بهما أرض الكهف ذات النؤى ، فتهشم رأساهما ، وانتثر المخ فوق الحجارة هنا ... وهنا ... وألقمها بعد ذلك فى الجمر المتأجج حتى نضجا ... واستوى كالسبع الرئبال ، وطفق يتهشمهما ... ولم يمض وقت طويل حتى أتى عليهما ، غير مبق على عظمة واحدة أما نحن فيا لآلهة السماء . . . لقد كان هذا المنظر الفاجع يعصف بنفوسنا ، ولم نملك إلا أن نرفع الأكف فنبتهل إلى جوف أن ينجينا . وأن يرحمنا ولم يكن لنا مع ذاك من أمل فى نجاة ! !

وبعد أن أشبع الجبار نهمته من هذا اللحم الآدمى الغريض ، وبعد أن شرب من اللبن شرب الهيم ، انطرح بين قطعانه ، وجعل يرسل فى

(١) درع

الكهف شخيراً مزعجاً . . . ولقد حدثتنى نفسى أن أنقض عليه فأخوض فى لَبَّتِهِ بحزارى ، ولكن فكرة سوداء طافت برأسى ، حينما نظرت إلى باب الكهف فأبصرت الحجر الضخم الذى لا يطيق أحد أن يزحزحه ، وتذكرت الموتة الجاهلية المفزعة التى سنموتها إن فعلت ... فقنطت قنوطاً شديداً ، وأرسلت آهات الحسرة والندامة أنا وأصحابى ، وانتظرنا بقلوب فارغة تباشير الفجر ورأينا أورورا الوردية ترسل أول أشعتها من الكوى الصغيرة ، فهب السكلوب إلى قطعانه ، وأخذ فى حلب إناثها ، وكلما فرغ من واحدة أرسل إليها صغارها ترضع وتنخب ؛ ثم إنه قبض على اثنين من رجالى وفعل بهما كما فعل بصاحبينا أمس ، حتى إذا فرغ من إفطاره ، هب إلى الحجر فزحزحه فى سهولة ويسر ، كأنما كان يزحزح غطاء آنية ، ثم استاق قطعانه ، وأعاد الحجر إلى مكانه ، ومضى يرعى بُهمه ، وبقينا نحن ندعو ثبورا ... وفكرت ألف فكرة فى وسيلة أنتقم بها من هذا المارد الوحش ، وتوسلت بميرفا أن أستطيع . . . وانفرجت أسارير وجهى فجأة ، وأشرق وجهى بنور الأمل ... ذلك أننى أبصرت بجذع زيتون مشذب أعده الجنى ليكون عصا يهش بها على قطعانه ، فقلت فى نفسى : « ولم لا يكون فى هذا الجذع خلاصنا ؟ » ، ثم إنى أمرت رجالى بِبَرْىِ أحد طرفيه ، وكان الجذع طويلاً جداً ، يصلح سارية لسفينة كبيرة يعمل فيها عشرون بحاراً ... فأقبلوا عليه يتحتون ويبرون ، وأكببت أنا على نهاية الطرف أحدده ... ثم انتهينا من عملنا وأخفينا الجذع تحت القش الكثير الملقى فى الكهف ، وجلسنا نتخير من بيننا أشجعنا وأكثرنا أيداً وقوة ، وأشدنا استعداداً لحمله وغرزه من طرفه المحدد فى عين السيكلوب . . . وانتهينا من ذلك إلى أربعة ، وكنت أنا خامسهم . . . ثم عاد الجنى فى موعده فأدخل قطعانه وأرجع الحجر إلى مكانه ، وجلس يحلب الأناث ويقسم اللبن ويمخضه ، ويرسل كل جذع إلى أمه ؛ ثم نهض إلينا فبطش باثنين منا وتعشى بهما ، وقبل أن يستلقى على الأرض ليستريح أقمت كأساً كبيرة مما كان معنا من خمر مارون وتقدمت بها إليه وأنا أقول : « ألا أيهذا السكلوب ! هاك كأساً من الخمر إذا تحسيتها بعد أكلتك الهنية من اللحم البشرى عرفت أى خمر فقدنا فى سفينتنا المغرقة . لقد كنت أحضرتها تكرمة لك إذا أنت أكرمت مثوانا وأطلقت سراحنا وساعدتنا على العودة إلى وطننا سالمين ! ولكن ! أواه ! إن سورتك طامية أيها القاسى الجبار ، وإن أحداً من البشر لن يجسر أن يقترب من جزيرتكم بعد اليوم ! » . وأخذ الكأس فعبها عبّا ، وسر بها سروراً كبيراً ، ثم سأل أخرى فقال : « أيها الفتى ما اسمك ؟ إعطنى كأساً أخرى وإنى مثيبك عليها . إن لدينا خمراً صرفاً من أكرم ما تعصر العناقيد ، يسقيها جوف من شآبيبه ، ولكنها أبداً لا تبلغ هذه الخمر البكر جودة » وأعطيته ثانية وثالثة ، وراح المجنون يشرب ويشرب ، ولما شهدت النشوة ترقص برأسه قلت له فى ظرف : « أيها السيكلوب لقد تساءلت عن اسمى ، ألا فاعلم أنه أوتيس[1] ،

(١) أوتيس Outis معناها (لا أحد) ولم يستحسن مترجمو هومر ترجمتها ، لأنها قد تعنى (ذو الأذنين الكبيرتين) ولكنا نؤثر ترجمتها

وبه أسمى فى بلادى ! ولكنك وعدت أن تثيبنى على ما قدمت لك من خمر ، فماذا عساك ما تحى ؟ » فاستهزأ السيكلوب وقال : « اطمئن ياصاح ! سأهب لك أن تكون آخر من آكل من إخوانك .. هذا هو جزاؤك ! » وتثاءب وتثاءب ، ثم انطرح وسط قطعانه يغط فى نوم عميق ... وكان يصعّد أنفاسه بقوة فتتقذف من بلعومه شوائب من خمر ، ممتزجة بقضمات من لحم بشرى ... ؛ ... وقفزنا إلى جزع الزيتون فوضعنا طرفه المحدد المبرى فى الجمر المتأجج حتى تأجج مثله ، وبكلمات قليلة أثرت النخوة فى نفوس إخوانى حتى لا تخذلهم قواهم ، ثم استعنت الآلهة فابتعثت فينا قواها السحرية ، واستجمعنا كل ما فينا من مُنّة اليأس ، ووضعنا الطرف المشتعل فى عين السيكلوب المقفلة ، وحركنا الجذع وطفقت أنا أقلبه فيها من مكان عَلُ ، كما يفعل السَّفان الصناع بمثقابه فى خشب السنديان ... وانبجس الدم من عين السيكلوب العمياء ، وجحظ إنسانها كأنه عين حمئة من دم وعلز ... وقصارای : لقد كنا كالحداد الماهر الذى يطفىء سلاحا محمى فى ماء بارد ! ! ولقد صرخ السيكلوب[1] صرخة ردد أصداءها الكهف .. ثم رددتها الغيران والجبال المجاورة ؛ وذعرنا نحن ، فلصقنا بالشقوق والزوايا ؛ وراح الجنى الجبار يخبط فى ظلام العمى بعد إذ انتزع الجذع المشتعل من عينه ، وهرول كالجبل نحو الباب فوقف عنده ، وطفق يولول ويهتف ويصيح ، ويدعو جميع إخوانه السيكلوپس كلاً باسمه ، فاجتمعوا إليه من كل فج عميق ... وقال قائلهم : « ماذا دهاك يا پوليفيم حتى تروعنا هكذا فى ظلام الليل ، وحتى تقض مضاجعنا بصراخك الفظيع ؟ هل خفت أن يستاق أحد قطعانك ، أم خشيت أن يقتلك أحد بقوة أو غدر ؟ » وقال پوليفيم وهو يتصدع : « آه يا أصدقائى ! إنى أموت ! ولقد قتلنى أوتيس[2] ! » فقال قائلهم : « إن كان أوتيس — الذى هو لا أحد — قد ألحق بك أذى فما صنع بك هذا إلا چوف ؟ تجلد ياصاح ، وادع أبانا نپتيون ليساعدك ، يأتك من أعماق اليم » وتركوه وانصرفوا لشأنهم ، وضحكت أنا فى سريرتى لأنى استطعت أن أعمى عليهم بهذا الاسم الملفق المفترى . وما برح پوليفيم يبكى ويعول ويهزه الألم والأسى ، حتى زحزح الحجر الذى يسد الباب ، وجلس عنده ، ماداً ذراعيه ليمنع أحداً منا أن يفلت أو أن يذهب ببعض أنعامه . . . إنه يحسبنا بلهاء مثله !! . وجلسنا نعمل الفكرة بعد الفكرة ، ونرسم الخطط تلو الخطط لنجاتنا .. حتى تاحت لى فكرة حسنة ، أيقنت أنها تفلتنا من هذا السجن السحيق إن كان شىء مستطيعاً أن يطلق سراحنا منه لقد فكرت وفكرت ، فبدا لى أن لدى السيكلوب كباشاً كباراً تستطيع أن تحملنا إذا ربط كل منا تحت بطن واحد منها . ولقد كانت الكباش سمينة حقاً ، ذات فراء كثة وقوة كبيرة فقمت من فورى فجدلت من أغصان الصفصاف التى كان السيكلوب الشنيع ينام فوقها ، وجعلت من كل ثلاثة حبلاً واحدا ، ثم ربطت كل رجل تحت بطن كبش كبير قوى جعلته بين كبشين لا يحملان أحدا ، بل يكونان وقاية للكبش الذى يحمل رجلا

(١) يحسن أن نلفت نظر القارىء إلى طبيعة السيكلوب وأنه لا يملك إلا عيناً واحدة

(٢) ليذكر القارىء أن معنى أوتيس (لا أحد)

بينهما ... أما أنا فتعلقت بصوف الكبش الأخير ، وبقيت ساكتا صامتا ، ومكثنا هكذا ننتظر الفجر المقدس الرهيب ، بعيون واكفة وقلوب واجفة ... حتى بزغت أورورا فمروات الذكران كعادتها المرعى ، وبقيت الأناث لكى تحلب ، وتهادت الكباش بالأثقال الملقة تحتها وهى تكاد تنوء بها ، وكان السيكلوب ما يزال يعول ويشكو بثه إلى غير سميع ، وكان يلمس بيديه ظهور الكباش وهو لا يدرى ما تحتها ، حتى إذا برز كبشى ، زلزلت زلزالا ، وسمعته يقول له وهو يتحسسه : « يا كبشى الحبيب مالك استأنيت هكذا وكنت دائما سباقا إلى المرعى على رأس القطيع تقضم الكلأ الحلو ... سباقا إلى الغدير ذى الخرير تنهل من مائه السلسبيل ؟ بل كنت سباقا كذلك إلى مأواك هنا ... فى كل مساء ؟ ويحى وويحك يا كبشى الحبيب ! لقد أسيت لى ، وحزنت من أجلى ، وشمرت بما دهى صاحبك من التعس الرجيم أوتيس ، وأتباعه اللؤماء الملوكين ... أوتيس الذى سحرنى بخمره ... ويل له ؟ إنه لن يُفْلَت من الموت اليوم ! آه لو كان قلبك مثل قلبى ، وآه لو كان لى بصرك الحديد فيدلنى أين اختبأ أوتيس التعيس ! إذن كنت أحطم رأسه فوق هذا الصخر ، أوتيس الوغد ... الذى اسمه لا أحد ! ! فهو لا يساوى شيئا ؟ »

ثم أفلته المقفل فانطلق الكبش فى إثر رفاقه ، حتى إذا كنا بعيدين من الكهف ومن صاحبه قفزت من مكمنى ، وعدوت فأطلقت سراح رفاقى ، وسقنا نخبة من أحسن النعاج إلى حيث سفينتنا المختبئة فى الجون الهادىء ... فى ظلال الحور والسنديان ... وأبحرنا من فورنا فوصلنا إلى إخواننا فى الجزيرة الأخرى الذين هنأونا بقدر ما ذرفوا الدموع على ضحايا بوليفيم ! ! واعتزمنا الأبحار فاستعد كل فى سفينة ، وأقلعنا لا نلوى على شىء . حتى إذا كنا على مسافة مبلغ الصوت من الشاطىء ، نهضت وجعلت أهتف بالسكلوب بوليفيم هكذا : « بوليفيم ! لقد بؤت بما صنعت يداك ، وكان جزاؤك وفاقا ، أيها النذل الخسيس ! لقد حسبت أنك تغتال رجال قائد لا سلطان له عليك ، ولا قدرة له على الانتقام منك ، فرحت تغتذى كالوحش باحم ضيوفك الذين لجأوا إليك وتفيأوا ظلك ... فاهنأ الآن أيها الهولة بما حل بك ! » . وما كدت أصمت حتى ثار ثائره وغلت مراجله ، وانتزع صخرا كبيرا من شعاف الجبل ، وقذف به فى قوة وعنفوان ناحية الصوت ، فهوى الصخر على مقربة منا ، وكاد يهشم سكان السفينة ؛ وقد انفرج البحر ، وانشطرت أمواجه ، وارتدت السفينة نحو الشاطىء حتى كادت تغوص فى رماله وتتحطم على أواذيه ، لولا أن أمسكت بالسارية الكبرى وجعلت أدفع وأدفع حتى عادت السفينة إلى مكانها فى البحر ... وابتعدنا قليلا ... وجاهد رجالى بمجاذيفهم حتى كنا على مسافة هى ضعف المسافة الأولى ... وهنا ، حاولت أن أصيح بالسيكلوب مرة أخرى ، غير أن إخوانى حالوا بينى وبين ذلك ، وسمعت بعضهم يقول : « ويلك أوديسيوس ! لم تهيج الجنى بكلماتك ، وقد كاد الحجر الذى قذفه إلينا يودى بنا جميعا ويحطم سفينتنا على الشاطىء ؟ أما تحمد الآلهة التى أنقذتنا من ساعديه الجبارتين ، وهو لو سمع ركزا من أحدنا لهشمنا جميعا قبل أن نغادر غاره ؟ » على أننى ما أصخت لهم ، بل هتفت بالمارد الجبار أقول : « أيها السيكلوب الطاغى ! إذا سألك أحد من عماك فقل له أعمانى أوديسيوس ابن ليرتيس الأيثاكى ! »

وتأوه المارد حتى كاد يتصدع وقال : « ويلى منك ! لقد صدقت النبوءة ، وتحقق ما قال تلموس يوريميد النبي الذى شب بيننا وظالما تحدث إلينا معشر السيكلوبس عما خبأ القضاء فى صحف الغيب لنا ؛ لقد قال لى إنى سأفقد بصرى بوساطة رجل من البشر يدعى أوديسيوس ، فظللت أنتظره ، وكنت أحسبه مخلوقاً طويلاً عظيم الجسم بادى القوة ... فاذا هو أنت أيها القزم — اللاشىء ! — الذى قهرتنى أولاً بالخمر ثم أذهبت بصرى وأطفأت النور من عينى ! أوه ... ولكن ... عد إلى يا أوديسيوس وحل على ضيفاً من جديد ، أكرم مثواك ... وأسل من أجلك لأبى ... نبتيون ... الفخور بى ، أن يعهد لك البحر ، ويطامن من تحتك الموج حتى تصل إلى بلادك سالما ... إنه وحده هو اللطيف بى ، وليست قوة فى الوجود غيره تستطيع أن تشفينى وترد على بصرى ! » فقلت له : « بنفسى لو استطعت فقذفت بك من حالق إلى قرار جهنم فلايقدر أحد على رد بصرك إليك — حتى ولا أبوك هذا ! » . وغيظ السيكلوب وحنق ، ورفع كفيه إلى السماء يصلى لأبيه هكذا : « أبتاه نبتيون المحيط بالأرض اسمع دعائى ، ياصاحب الشعر اللازوردى ، إذا كنت حقاً أبى ، وإذا كنت حقاً تفخر ببنوتى فاحرم هذا القزم المدعو أوديسيوس بن ليرتيس الأيثاكى من العود إلى بلاده ، إلا أن يكون هذا قضاء فى الأزل فأقم العقاب فى طريقه ، وشرده طويلاً فى البحر ، وأغرق سفائنه واقبر فى الأعماق أصحابه ، وأحوجه إلى ذل السؤال وطلب المعونة من الناس ليمدوه بمركب يعود عليه ؛ وإذا عاد فليلق الهم والغم مقيمين ببابه ... آمين ! » ولبى نبتيون ، ورفع السيكلوب حجراً أضخم من الأول ، وجعل يهوم به بكلتا يديه ، ثم قذفه قذفة هائلة ، فذهب يرنق فوقنا ، وسقط وراءنا بمقربة من السكان ، فانشطر البحر إلى فرقين كل فرق كالطود العظيم ، ثم انحسر الماء فجرت السفينة إلى الشاطئ مرة أخرى ، ولكنها هذه المرة أرست على الشاطئ الآخر الذى أرست عنده سفائننا الأخرى ، حيث أقام إخواننا يشهدون المعركة الهائلة ويجزعون ... ثم إننا نزلنا إلى البر ، وفرقنا الأنصبات من نعاج السيكلوب بيننا . وكان من نصيبى ذلك الكبش المفدى الذى نجانى ، فذبحته على رمال الشاطئ قرباناً لجوف المتعالى ... والأسفاه ! إن أكبر ظنى أنه لم يقبل قربانى ، لأن أكثر سفائننا أغرقت فيما بعد ... وأكلنا هنيئاً ، وشربنا الخمر المعتقة ، وانتظرنا مد البحر ، ولكنه استأنى علينا ، فنمنا حتى نضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، ونهضنا . . . ونشرنا الشراع وأصلحنا القلاع ، وأبحرنا ، بقلوب واجفة ، ونفوس نال منها الهلع ، لائذين بالفرار

(يتبع)

دريني خشبة

فى الطريق

كتاب جديد يصدر فى سبتمبر

بقلم الأستاذ

ابراهيم عبد القادر المازنى

أكثر من ٦٠ قصة فى ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش

الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك يقفل فى منتصف أغسطس

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر